دعوة الإمام محمد بن علي السنوسي الإصلاحية (في ليبيا)
1202 -1276هـ

أ.د/ محمد عمر محمد حسن
الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الشريعة والدراسات الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد فإن الظروف الراهنة في ليبيا الحبيبة أعادت في ذهني وذاكرتي تلك الدعوة الإصلاحية التي وجدت على أرض ليبيا الحبيبة منذ ما يقرب من مائتي سنة حيث تشابهت الظروف الميدانية إلى حد كبير فما كان من أحد أبناء المغرب العربي العظام إلا أن وهب نفسه لخدمة وطنه وأهله بهمة عالية مسترخصاً الغالي والنفيس في سبيل إصلاح العباد والبلاد.

إصلاح العباد بأن أخذ على عاتقه العودة بهم إلى طريق الله المستقيم المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله فأخذ يدعوهم ويربي الدعاة والمصلحين كي يقوموا معه بهذه المهمة، وهو وإن كان قد اتخذ طريق التصوف سلوكاً لبلوغ هذه المهمة وهذا الهدف إلا أنه نجح في ذلك أيما نجاح.

كما أراد إصلاح البلاد بالعودة ببلاده إلى حالة الأمن والاستقرار السياسي وتخليصها من كافة القوى الأجنبية التي أخذت على عاتقها نهب البلاد من خيراتها وإشاعة الفساد بين أبنائها واتخذ طريق الجهاد الإسلامي لمحاربة المستعمرين وتخليص البلاد من الفاسدين الذين يستعملهم المستعمر كطابور خامس لخدمة أهدافه الاستعمارية ونجح من ذلك أيما نجاح.

أردت أن أذكر أخواننا في ليبيا بشيء من ماضيهم المشرق الذي تمثل في الدعوة السنوسية.

فألقيت الضوء عليها لعلهم باعتزازهم بأجدادهم وافتخارهم بهم يتلمسون طريقهم ويسيرون على نهجهم في العودة بالعباد إلى رب العباد والتمسك بما أرشدنا إليه رسولنا صلى الله عليه وسلم حينما قال: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي) والعودة بالبلاد أيضاً إلى سابق عهدها الآمن المستقر المزدهر بفضل الله ثم بفضل أبناء البلد الشرفاء المخلصين.

نسأل الله أن يصلح البلاد والعباد ويهدينا صراطه المستقيم إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

الدعوة السنوسية:

تنسب إلى مؤسسها محمد بن علي الملقب بالسنوسي الخطابي الإدريسي.

ولد في قرية الواسطة على ضفتي وادي شلف بالقرب من بلدة مستغانم بالجزائر وكانت ولادته سنة 1202 هـ في الثاني عشر من ربيع الأول منها الموافق الثاني والعشرين من ديسمبر سنة 1787م وتوفي سنة 1276هـ/1859م ودفن في منطقة الجغبوب .

لقب بالسنوسي نسبة إلى جده السنوسي ابن العربي الذي أخذه بدوره من قبيلة (بني سنوس) إحدى قبائل تلمسان بالجزائر الذي أخذته من الجبل الذي نزلت به في الجزائر وكان يسمى (جبل سنوس) وتعرف عائلة السنوسي الآن في باسم عائلة (الأطرشي).

ولقب بالخطابي نسبة إلى جده (خطاب بن علي يحيى).

ولقب بالإدريسي . نسبة إلى دولة ا لأدارسة التي أسسها إدريس الأكبر في مدينة (وليلى) سنة 173هـ وانتقل مركزها إلى مدينة فاس وقيل أن هذه الدولة ينتسب مؤسسوها إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها . وإذا كان كذلك فإن محمد بن علي السنوسي ينتهي نسبه إلى نفس النسب.

بيئته/

نشأ في عائلة عرفت بالعلم . توفي أبوه في سن الشباب حيث لم يتعد الخامسة والعشرين من عمره وترك الولد وعمره عامان. فكفلته عمته وقيل أنه كان لها شغف علمي وأنها انقطعت للدرس والتدريس والوعظ والإرشاد حتى أنه كان يتردد على مجلسها كثير من الرجال طلبا للعلم .

فأخذت ابن أخيها وأدخلته في كنفها وأشغلته بحفظ القرآن الكريم ثم بعلم العقائد. وبقي معها حتى سن العاشرة من عمره حيث توفيت.

وبعد وفاتها انتقلت كفالته إلى جده ولكنها لم تمكث طويلاً حيث انتقلت إلى ابن عم له يسمى (شاهب) نظرا لوفاة جده. فأخذه ابن عمه واعتنى به وأخذ يدرس له العلوم المختلفة من حديث وفقه وغيرهما. كما درس له مبادئ التصوف وإلى جانب ذلك كان يأخذ العلم أيضاً عن علماء مستغانم، ومازون المجاورة لها.

وما أن بلغ الصبي الثامنة عشرة من عمره حتى توفي ابن عمه وبعد سنتين ترك مستغانم وسافر إلى فاس.

ويعتبر هذا السفر بالنسبة له فاصلاً بين حياتين، حياة كان يعتمد فيها على الغير، وحياة اعتمد فيها على نفسه وتحمل مسئوليته بعد أن تكونت شخصيته.

وهنا وقفه قبل أن تنتقل معه إلى فاس . في هذه الوقفة نتعرف على أهم الأسباب التي دعته إلى أن يترك بلده ويذهب بعيداً عنها.

يقال: إن هناك سببان رئيسيان دفعاه إلى ذلك.

أولهما: الإستزادة من العلم. فقد كان شاباً محباً للعلم مقبلاً عليه بشغف فبعد أن فرغ من العلم على أيدي من ببلده وما جاورها من العلماء فكر في أن يأخذ العلم على أيدي علماء جامع القرويين في فاس.

السبب الثاني: سوء الأوضاع الأمنية في بلده حيث سادتها حالة من عدم الاستقرار نظراً لظلم الولاة واضطهادهم لأهلها وخاصة العلماء وقيام الثورات ضدهم من جانب أهل البلاد فهذه الحالة جعلته يعجل سفره حيث أن الوقت حينئذٍ لا يحتاج إلى تأجيل.

أقول: ذهب إلى مدينة فاس والتحق بجامع القرويين[1] للدراسة فيه وذلك الذي اشترك في تأسيسه أجداده وقد كان يشبه الجامع الأزهر في مصر إلى حد كبير ، كما كان يمثل هو وجامع الزيتونة مقر الدراسات الدينية والعربية في شمال أفريقيا.

وما أن التحق بالجامع حتى بدأ في التلقي على أيدي أكابر العلماء والأخذ عنهم ألوان العلوم المختلفة حتى يقال أنه لم يترك علماً من العلوم المنتشرة هناك في ذلك الوقت إلا أخذ منه، ولا حلقة من حلقات العلم إلا دخل فيها. وكان يأخذ ممن يتعلم على أيديهم في تلك الحلقات إذا أتمها إجازة أو ما نسميها شهادة تفيد إتمامه لتلك الحلقة أو غيرها.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إقبال السنوسي على تلقي العلم، كما تشير إلى سعة إطلاعه وقد ظل مهتماً بتلك العلوم التي درسها لدرجة أنه قام بتدريسها أو بعضها لبعض طلابه ومريديه فيما بعد.

وكان من أهم العلوم التي درسها وأهتم بها الفقه، والتصوف.

حيث درس الفقه بصفة ع امة واهتم اهتماماً خاصاً بالمذهب المالكي فيه ذلك الذي كان يتبعه أهالي شمال أفريقيا منذ القرن الثاني االهجري.

أقول: درس الفقه المالكي حتى أجيز فيه ثم قام بتدريسه فترة من الوقت في نفس الجامع . واستزاد منه أيضاً على أيدي علماء مكة بعد أن ذهب إليها كما سنرى بعد.

ودرس كذلك التصوف واهتم به نظراً لانتشاره في البيئة التي كان يعيشها. فقد كان ابن عمه كما ذكرت قد علمه بعضاً من مبادئ التصوف فلما ذهب إلى فاس التحق بطريقة

---

(1) اسم مخفف من القيروانيين وهم القسم الغربي من مدينة فاس حيث كان مقر المهاجرين من القيروان.

صوفية لها شهرتها هناك تسمى ا لطريقة التيجانية فتتلمذ على يد شيخها أحمد بن محمد التيجاني (1737-1814م) في زاوية (عين مهدي) والتزم بها وبأدابها.

وكان حريصاً على زيارة الزاوية والإجتماع بإخوانه في الطريقة طوال مدة إقامته في فاس التي استمرت سبع سنوات تقريباً من (1810-1817م) تقريباً.

ولنا وقفة مع هذه الطريقة أعني التيجانية قبل أن ننتقل معه إلى مكان آخر.

فأقول: لقد قيل إن هذه الطريقة متفرعة من الطريقة الخلوتية نسبة إلى (ابن الخلوتي) تلك التي ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي (التاسع الهجري) تقريباً.

وهي إحدى طرق ثلاث صوفية كبرى انتشرت في أفريقيا.

والطريقتان الأخريان هما القادرية ، الشاذلية.

أما القادرية فهي نسبة إلى محمد بن عبدالقادر الجيلاني الذي ولد سنة 470 هـ وتوفي 561هـ.

وأما الشاذلية فهي نسبة إلى علي بن عبدالله الشاذلي الذي ولد سنة 553هـ وتوفي 656هـ.

نعود إلى التيجانية لنذكر اهم ما يميزها عن غيرها فأقول: إن أهم ما يفرقها عن غيرها من الطرق الأخرى أمران:

الأول/ اعتقادهم بإمكانية مقابلة النبي صلى الله عليه وسلم حسياً مادياً في الدنيا.

ويقول شيخهم (أحمد التيجاني) أنه قد التقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لقاءاً حسياً مادياً وأنه كلمه مشافهة.

الثاني/ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خصهم بصيغة للصلاة عليه يستفتح بها المغالين وتقضى بها الحوائج سموها صلاة (الفاتح لما أغلق).

وصيغة هذه ا لصلاة كما يقولون:

" اللهم صلى على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله . حق قدره ومقداره العظيم..

ولهم في هذه الصلاة اعتقادات منها:

1. أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبره مرة بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات.

2. أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبره مرة أخرى بأن المرة الواحدة منها تعدل من كل ذكرٍ، ومن كل دعاء كبير وصغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة.

3. أن من تلاها عشر مرات، لو عاش العارف بالله ألف ألف سنة (يعني مليون) ولم يذكر تلك الصلاة فيها (في هذه المليون سنة) كان الذي تلاها أكثر ثواباً منه.

4. أن من تلاها كفرت بها ذنوبه، ووزنت له من كل تسبيح ودعاء وذكر وقع في الكون ستة آلاف من ذلك التسبيح والدعاء والذكر.

5. أن ذلك الفضل لا يحصل بها إلا بشرط أن يكون صاحبها مأذوناً بتلاوتها من سابقه وهكذا حتى يصل الإذن إلى أحمد التيجاني الذي يقولون أنه تلقاها عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولا يخفى ما في هذين الأمرين وتلك الاعتقادات من مخالفات لظاهر العقيدة الإسلامية الصحيحة.

بعد هذه القفزة التي أردت منها بيان وتوضيح شيء من معتقدات الطريقة التي اتبعها ابن السنوسي وما فيها من مخالفات أعود معه مرة أخرى.

فأقول: لقد قيل أنه بعد مضي سبع سنوات في فاس أراد الحج فترك فاس قاصداً مكة لأداء فريضة الحج عندها بدأ مشواراً طويلاً في الرحلات بين مكة والجزائر وغيرها من البلدان.

وأرى أن أجمل سني هذه الرحلات وتواريخها التقريبية حتى يحاط بها مبدئيا ثم أفصلها بعد إن شاء الله.

فالثابت أنه في سن الثلاثين من عمره سنة 1817م (1233هـ أو 1234هـ تقريباً) ترك فاس وقصد مكة ثم أقام في مكة ست سنوات إلى سنة 1823م الموافق 1240هـ تقريباً بعدها عاد إلى الجزائر واستمر فيها ما يقارب ثمان سنوات إلى 1830م تقريبا الموافق 1248هـ. رجع مرة أخرى بعدها إلى الحجاز واستمر فيها حتى سافر إلى اليمن مع شيخه أحمد بن إدريس الفاسي سنة 1840م وبعد وفاة الشيخ بعد ذهابه إلى اليمن بثلاث سنوات رجع مرة أخرى إلى الحجاز سنة 1843م ويوافق تقريباً 1258 هـ أسس عندئذ أول زاوية له في جبل (أبي قبيس) مبتدأ منها دعوته أو حركته وأثناء ذهابه إلى مكة والعودة منها كان يمر ببلاد لم يكن له قرار طويل فيها.

ثم خرج بعد ذلك متنقلاً بين بلاد متعددة يبدأ فيها بتأسيس الزوايا لنشر دعوته في تلك البلاد.

بعد هذا الإجمال :

أعود فأفصل بعض الشيء لبعض من هذه الرحلات خاصة ما كان منها له تأثير في حياته.

أقول:

في سن الثلاثين من عمره ترك فاس قاصدا مكة لأداء فريضة الحج فسلك طريقة في جنوب الجزائر إلى مدينة فاس بالمغرب ثم إ لى مدينة طرابلس فبني غازي فالقاهرة فالحجاز ومن كل بلد كان يأخذ من علمائها ما يستطيع وما تسمح به ظروفه.

وهناك بالحجاز أقام ست سنوات درس الفقه الإسلامي على علماء مكة ومشايخها ولا يستبعد أن يكون قد التقى ببعض علماء الدعوة السلفية . وتأثر بآرائهم خاصة ما يتعلق منها بالدعوة إلى الإجتهاد ، ومحاربة التقليد والبعد عن الخرافات والبدع كما كان يتعرف على أحوال المسلمين في العالم الإسلامي بإتصاله بالحجيج في موسم الحج.

ثم عاد بعد هذه السنين إ لى الجزائر وكان ذلك حوالي سنة 1825م بقي هناك حتى سنة 1833م أي بعد الحملة الفرنسية على الجزائر بثلاث سنوات.

وقد هزه هذا الحادث (الاحتلال الفرنسي لأراضي المغرب العربي) هزا كبيراً ودفعه إلى العمل السريع من أجل المقاومة . ففكر في حركة تجميع شاملة تعم العالم الإسلامي كله وتحاصر الإستعمار في محاولة لتجميده والقضاء عليه ولذا يقال أن هذه الدعوة كانت بمثابة رد فعل إيجابي للإحتلال الفرنسي للجزائر.

غادر الجزائر سنة 1833م وإتجه إلى مكة مرة أخرى. ويقال أن السبب في ذلك أنه رأى رؤيا وجد نفسه فيها يبحث عن قطب عنده الحل لما يحيط بهم من مشاكل.

وفي هذه الرحلة مر على مصر لكنا وجدناه لم يستمر فيها طويلاً ، قيل أن السبب في ذلك:

1. أن الأحوال السياسية وقتئذٍ لم تكن على ما يرام .
2. وقيل أنه يعود إلى معتقدات ابن السنوسي الصوفية حيث يقال أنه خرج من الجزائر أصلاً يبحث عن قطب من الصالحين بناءا على الرؤيا التي أشرت إليها آنفاً.

وحدث يوماً أن كان يتوضأ في الأزهر وأثنا ءخروجه بعد الانتهاء من الوضوء اصطدم بفلاح ليس له سابق معرفة به فقال له الفلاح لم تصنع معي هكذا يابن السنوسي . فتعجب من مخاطبة الفلاح له بهذه الطريقة ومعرفته لاسمه فسأله عن كيفية معرفته لاسمه فلم يجبه ثم قال له أن ما تبحث عنه ليس هنا وإنما في مكة فاعتقد أن هذا الرجل من الأولياء وأسرع بالخروج إلى مكة.

وهذا هو الراجح والذي يتمشى مع الطبيعة الصوفية ، ولا مانع أن يكون الأثنان معاً.

وعلى كل حال فقد ترك مصر وذهب إلى الحجاز ونزل بمكة وكانت حينئذٍ تحت حكم إبراهيم باشا . ووجد نفسه مرة أخرى بمكة في مقر البيت العتيق وملتقى العلماء والحجيج يأتون من كل فج. إلى جانب ذلك كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد تأثر بها بعض

علماء مكة وبعض أهلها ، ولا تزال هذه ا لآثار باقية حتى بعد أن تركها الشيخ سياسيا حيث ظل بعض الناس مستمسكين بتعاليمه ومبادئه .

وجد نفسه في هذا الملتقى الفكري الضخم فحرص على أن يأخذ من هؤلاء جميعاً ما يستطيع وكان من أبرز من أخذ عنهم هناك:

مفتي مكة وقاضيها أبو حفصة عمر العطار، وأحمد بن محمد الدجاني، أحمد بن إدريس الفاسي الملقب بأبي العباس العرائسي . هذا الذي اعتقد فيه السنوسي أنه بغيته ومقصده حيث كان شيخاً لطريقة صوفية تسمى الطريقة الإدريسية وقيل أنه كان الرئيس الرابع للطريقة القادرية المراكشية (الجيلانية التي كان مقرها المغرب) أقول: استمر ابن السنوسي في مكة ثمان سنوات تقريبا واظب فيها على الدرس خاصة درس الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي شيخ الطريقة السابق ذكره وتجاوب معه علميا وروحياً لاعتقاده أنه القطب. ثم حدث أن اختلفت هذا الشيخ مع علماء مكة في بعض الأمور فاضطهدوه فآثر الخروج من مكة قاصداً اليمن فصحبه ابن السنوسي ومحمد بن عثمان المراغني مؤسس الطريقة المراغينية في السودان وأثناء رحيله إلى اليمن مر على قرية كانت في فترة طويلة مقراً لدعوة للشيخ محمد بن عبدالوهاب يقال لها (صبية)من نواحي منطقة عسير .

ومن الطبيعي لم تخل هذه البلدة من مؤيدي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى ولو فرض إخفائهم لهذا التأييد .

واعتقد أن ذهاب الفاسي إ لى هذه البلدة بالذات إنما يدل على ميله للطريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في بعض جوانبها ورضا أهلها عنه وإلا ما قصدها دون غيرها فضلا عن أن اختلافه مع علماء مكة واضطهادهم إياه يعتبر مؤشراً على ميوله السلفية التي لم يكونوا موافقين لها.

وانعكس هذا بالطبع على هذا التلميذ والمريد المخلص (ابن السنوسي) مما يجعلنا نقول أن ما خرج به من آراء جديدة في شمال أفريقيا وغيرها من البلاد وكان متأثرا فيها بالدعوة السلفية خاصة ما يتعلق بالدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد والبعد عن الخرافات والبدع بالإضافة إلى إخلاص التوحيد لله سبحانه .

ثم تركوا تلك البلدة (صبية) وذهبوا إلى اليمن وأقاموا فيها ثلاث سنوات توفي الفاسي في نهايتها فقفل ابن السنوسي راجعا إلى مكة.

وقبل أن نرى ما قام به في مكة. نتوقف معه وشيخه وقفة بسيطة فأقول : لقد أصبحت العلاقة بين المريد والشيخ (أعني ابن السنوسي وأحمد بن إدريس الفاسي) قوية لدرجة أن الشيخ قد أذن للمريد بالدعوة للطريقة الإدريسية ، وحرص الإدريسي على أن يدعم موقف السنوسي فكان يخاطبه بما يلقى تقديره وتعظيمه بين الناس.

فعلى سبيل المثال كان في جمع غفير من الناس ذات يوم فقال للسنوسي أنت نحن ونحن أنت فقال السنوسي يا سيدي أين الثرى من الثريا وأين السهى من شمس الظهير فقال له شيخه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ثم قال فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ثم أمر السنوسي أن يدل الخلق إلى الله وقال للحاضرين إياكم وإياكم من قطع صحبته لأنه منا واختاره الله . ويقول. لو علم الناس مكانه (يعني السنوسي) عند الله لتزاحم الناس لرؤية وجهه وكان يقول عليه أيضاً: إياكم وإياكم من إيذائه فإن من يؤذيه يخاف عليه من سوء الخاتمة ويخاف عليه أن يؤخذ من حيث لا يدري، ومن تكلم فيه فقد تكلم فينا وآذانا، ومن آذانا فقد آذى رسول الله ومن آذى رسول الله فقد آذى الله، ونحن نرفع أنظارنا عن من يتعرض لابن السنوسي ، ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله ورسوله .

هكذا مكن الإدريسي لابن السنوسي وسلمه رئاسة الطائفة من بعده فبدا كما يقال في ممارسة مهام عمله باعتباره شيخا للطريقة.

بداية الدعوة:

ما إن عاد إلى مكة حتى بنى زاوية في جبل (أبي قبيس) تيمناً باسم الجبل الذي بنيت فيه (زاوية أبي قبيس) وبدأ يجتمع حوله المريدين وطلاب العلم وأصبحت هذه الزاوية مقرا لهم.

وكان توجيهه لهؤلاء مركزا على الإكثار من العبادة والتقشف والصوم على أساس أنها تنقي نفوسهم وتطهرها ومن لم يستطع المواصلة معه على هذا الأسلوب يذهب ويتركه.

ظل متبعاً لهذا الأسلوب فترة طويلة بطريقة صارمة وقوية لدرجة أن البعض منهم قد أشرف على الهلاك والبعض أصابه الضعف والهزال من كثرة الصيام والعبادة.

فيقال أن بعض هؤلاء الذي كاد أن يشرف على الهلاك ذهب إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكا له فأخبر الرسول ابن السنوسي فرجع عن هذا الأسلوب وغيره إلى أسلوب آخر.

سفره وتنقلاته:

بدأ ينظر إلى تصدير دعوته إلى الخارج وتوجيه أتباعه إلى العمل والجهاد بجانب الصلاة والصوم وسائر العبادات.

أمر الناس أن يسافروا لبناء زوايا من بلاد أخرى وكان من هذه البلاد التي نوى أن يجعلها مركزا لدعوته (برقة).

من برقة مرة أخرى إلى درنه وبقي فيها فترة ثم غادرها مرة أخرى عائداً إلى برقة ومكث فيها ما يقرب من ست سنوات رغب في أن يجعلها مركزا لدعوته ينطلق منها إلى ما حولها.

وقيل أن من أسباب رغبته هذه (جعله برقة منطلقا للدعوة) أنه رأى أنها بيئة صالحة للإصلاح، ولأنها بعيدة عن الحكام، ولأن أهلها غارقين في بحر الجهالة، ولكونها معبرا للصحراء، ولأن أهلها يستطيعون عبور الصحراء أكثر من غيرهم ويقال كذلك أنه اختارها إلى جانب ما سبق لكونها مكانا ليس فيه منافسا له . بل شاغرا له وحده بخلاف غيرها من الأماكن.

ثم غادرها بعد ست سنوات تقريبا متجها إلى الحجاز مرة أخرى كي يثبت دعوته من هناك لكونه محط الحجيج ومحط أنظار العالم فوجده المكان المناسب لبث دعوته وتوجيهها.

أهم العوامل التي أثرت في شخصية ابن السنوسي:

من تلك السيرة يتبين لنا المعالم الأساسية التي كونت شخصية – ابن السنوسي – أو الخطوط العريضة التي كان لها دور في تحديد شخصيته.

1–أول هذه المعالم كما عرفت التصوف : حيث نشأ عليه في بلده . والتحق بالطريقة التيجانية في فاس ثم انتهى بالإدريسية في مكة حتى أخذ مشيختها.

وكان له تأثير كبير عليه حتى أنه عندما أراد أن يقيم طريقة أو دعوته الإصلاحية أقامها على أساس من أسس التصوف وهو بناء الزوايا وعلى طريقة صوفية كان هو شيخها.

2–ثاني هذه المعالم هو دراسته الفقهية :

فكان اهتمامه بالفقه يقرب من اهتمامه بالتصوف وقد كان لدراسته المذاهب الفقهية المختلفة إلى جانب دراسة الفقه المالكي . الأثر البالغ في منهجه حيث كان سبباً في تأييده لفتح باب الإجتهاد ، وكان لهذه الدراسة أثر أيضاً في أبعاده عن الغلو الذي سارت فيه كثير من الطرق الصوفية.

3–ثالثها : النشأة العلمية التي نشأ عليها إذ من شأنها أن تولد عن الصبي تفتحاً عقليا ورغبة في الإطلاع والإستزادة من العلم وهذه لا توجد عند من لم ينشأ مثله.

4–الظروف والأوضاع:

التي يعاني منها العالم الإسلامي وقتئذٍ حيث نجد ونلحظ اهتمامه بها بحيث لم تبعد عن باله أو فكره فخرج من مكة ومعه كثير من أتباعه بعد أن ترك بعضهم في زاوية أبي قبيس وعندما نزل في ينبع قسم أتباعه إ لى مجموعتين:

مجموعة تسير بطريق البر، وأخرى بطريق البحر واختار السير مع المجموعة التي تسير بطريق البر ويقال أن غرضه من ذلك كان دعوة الناس في الطريق وتحسس أحوال المسلمين الذين يمر عليهم وكان عازماً على الذهاب إلى الجزائر ليساعد المجاهدين هناك ولكنه فجأة توقف في قابس ورجع إلى طرابلس.

السبب في تغير الإتجاه/

يقال أن السبب الذي جعله يغير من اتجاهه هو أنه خاف من بطش الفرنسيين الذين كانوا يحتلون الجزائر خاصة وأنه كما يقال كان يوجه المجاهدين ضد الفرنسيين وكان يمدهم بالأموال والأسلحة والتعاليم حتى قيل إن السنوسية هي السبب في الثورات ضد الفرنسيين.

وعندما رجع إلى طرابلس أقام فيه مدة ثم رحل عنه إلى بني غازي ومن هناك أرسل إلى أتباعه الذين كانوا قد ساروا بطريق البحر أن يتجهوا إلى البيضاء ويؤسسوا زاوية هناك ثم لحق بهم هناك وأشرف على بنائها. واختار لها موقعا متميزا أو ما نسميه استراتيجياً كعادته في اختيار أماكن الزوايا كما سنرى بعد.

وهناك في البيضاء تزوج للمرة الثالثة مريدا الولد لأنه لم ينجب من الزوجات السابقة وكان قد تزوج من ابنة عم له سرحها قبل أن يذهب إلى مكة في المرة الأولى ثم تزوج مرة ثانية بامرأة تدعى خديجة أثناء إقامته في مكة في المرة الثانية.

وكان ذلك الزواج الثالث من ابنة أحد أصحابه المقربين في البيضاء سنة 1259هـ تقريبا. ثم غادر البيضاء إلى (درنه) وترك زوجته فيها ثم اتجه هو إلى برقة ليتعرف على أحوال الناس هناك (وهناك في درنه وضعت زوجته ولدها الأول فأرسل إليه رسالة من أجل تسمية ابنه فأوصى بتسميته (المهدي) ثم رجع حتى وقت أن كان في مكة ومنشغلاً بالعلم والعبادة كان يتعرف على أحوال العالم الإسلامي عن طريق الحجيج، كما كان في رحلاته يؤثر السير بطريق البر حتى يتعرف على أحوال المسلمين في البلاد التي يمر بها.

وقد كان نتيجه لهذا الاهتمام:

أ-ان تأثر بحالة الحكم السيئة في البلاد التي كان يقطنها في صباه حيث الظلم المستشري، والأذى الذي كان يصيب الناس خاصة العلماء الذين لا يرضون عن هذا الظلم تلك المعايشة ولدت في نفسه منذ الصغر حالة من الكره الشديد للولاة العثمانيين. ثم كانت الأطماع الأوروبية في بلاده، وإحتلال فرنسا للجزائر هذا أيضاً نمى عنده الغيرة وولد لديه رغبة ملحة في الإصلاح.

ب-نتيجة لهذا الاهتمام أيضا تولد عنه نوع من الإحساس بالمسئولية عن المسلمين وعن إصلاح أحوالهم، وساعد على تولد هذا الإحساس عنده كونه سليل نسل الأدارسة أصحاب الدولة والمنتمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكروا.

فهو على هذا من أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم فظن أنه مسؤول عما كان الرسول مسؤولاً عنه.

بالإضافة إلى هذا موافقة اسمه وتاريخ ولادته للمصطفى عليه الصلاة والسلام الأمر الذي زاد من ذلك الإحساس عنده.

تلك أهم العوامل التي كان لها تأثير في شخصيته وننتقل إلى أهم الأسس التي قامت عليها دعوته.

أهم الأسس التي قامت عليها دعوة ابن السنوسي :

من خلال ما سبق في الكلام عن السيرة الذاتية لابن السنوسي نرى أن أهم الأسس أو الأساليب التي قام عليها النظام في الدعوة السنوسية هي إجمالاً:

أ–التصوف ب– اتخاذ الزوايا ج– الإمامة د– الهجرة هـ – الجهاد.

وأما تفصيلاً:

أ–التصوف :

عند ابن السنوسي : نجده قد أعلن أن أساس طريقته الصوفية التمسك بالكتاب والسنة وإتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الحسن والقبيح وأنه يزن أعمال قومه وأتباعه بميزان الشريعة ،حيث يقول:

الصوفية يزنون سلوكهم بمبادئ الشريعة ولا يعيبهم إلا الجاهلون بعلومهم أو المتعصبون عليهم، والسنة هي المرجع، وهي الحاكمة على الخطأ والصواب لأنها حجة على الجميع، وليس هناك أحد حجة عليها نعرض ما جاء عن الصوفية على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه وإلا فلا نقبله نحفظ ود الصوفية ولا ننكر عليهم إلا ما خالفوا فيه الكتاب والسنة[2]..

هذا هو منهج ابن السنوسي الذي أعلنه.

وذكر عنه أيضاً أن" التصوف المعتدل المبني على السنة هو طريق النفس إلى الخلاص من الآثام والإرتقاء في مراتب الكمال البشري"[3].

كما يقال أيضاً أنه .. واجه أفكار وحدة الوجود والاتحاد والحلول .. وقال في كتابه " المسائل العشر" : " فالذي يفني من العبد على التحقيق صفاته لا ذاته كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله واعتقدوا الحلول والاتحاد، وإن وقع من أصحاب الشطح ذلك فلا يعول عليه. لأن الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونه ودعوى"[4]..

ويقال أيضا: إنه كان يأمر اتباعه سالكي طريقته بقراءة صحيح البخاري، وموطأ الإمام ما لك، وبلوغ المرام . إلى جانب ما يقرأونه في التصوف.

([2]) راجع اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار /81.

([3]) نفسه.

([4]) نفسه.

كما يذكر أيضا أنه كان يقول: أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم فيه حكم الله بدليله".

ويحكي المؤرخون أن ابن السنوسي كان في حياته ينفذ أمور الشريعة ويحرص على تنفيذها ظاهراً وباطنا إلى جانب وصيته لأتباعه بالتزام كل ما سبق.

وقد حدا ظاهر هذا الكلام من ابن السنوسي بكثير من المؤرخين أن يجعل السنوسية من أكثر الطرق الصوفية تمسكاً بالسنة واستدلوا على ذلك بتلك الأقوال السابقة لابن السنوسي ، وبالصلة الودية والترابط بينها وبين أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب وانتهى بها بعض الكتاب إلى أنها طريقة عمل محتزية حياة الرسول كنموذج أسمى لحياة ال مسلم وأن ابن السنوسي عمل على تحرير الفكر الإسلامي من التقليد الأعمى ودعا إلى تنقية الإسلام مما علق من البدع وتطهير العقيدة مما ألصق بها من خرافات وأوهام وشوائب وطهر السنن المحمدية من الأساطير[5]...

وذكر كاتب آخر أن دعوة ابن السنوسي قد أبعد من طريقته الحديث عن كرامات الأولياء وخوارق العادات وميزات المتقدمين والمريدين وأنها امتازت بأنها لا شعوذة فيها ولا دجل والحديث فيها هو الحديث عن الله جل شأنه وعن كتابه [6]...

كما يقال إنها تميزت عن الطرق الأخرى بأنهم كانوا يقرأون أورادهم دون مصاحبة الموسيقى، وأن طريقتهم قد خلت من الأعمال البهلوانية كطعن السيوف وأكل الزجاج ... الخ.

لكن هذا الكلام من ابن السنوسي وتلك النتائج التي خرج بها أولئك الكتاب وغيرهم قد لا تقبل إذا ما عرفنا عدة أمور متصلة بعضها بغاية الطريق وبعضها بالمبايعة فيها وغير ذلك.

أقول: سأذكر بعضاً من هذه الأمور واستخدم المنهج الذي استخدمه ابن السنوسي وهو عرض ما يذكره على الكتاب والسنة فإن قبلاه قبلناه وإلا فلا نقبله لا من ابن السنوسي ولا من غيره فمما يتعلق بغاية الطريق فبالإضافة إلى محاولة إصلاح الأوضاع التي كانت قائمة، وسعيهم الحثيث في ذلك فإن من غايتها الروحية عندهم إلى جانب إصلاح الفرد، ورفعة قدره وإبعاده عن المعاصي.

([5]) نفسه 82

([6]) الفكر الإسلامي في تطوره /94.

فهي أيضاً محاولة للإتصال بالرسول صلى الله عليه وسلم حيث أن إقامة صلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والفرد أمر ممكن عندهم ووسيلته السير على طريقة ابن السنوسي.

فمن الممكن أن تتحد روح الفرد بروح النبي صلى الله عليه وسلم كما تتحد بروح الأقطاب الذي هو من الأمور المسلمة عندهم.

ويروي أتباع ابن السنوسي أن شيخهم كان متصلا بالرسول صلى الله عليه وسلم اتصالا مباشراً، وكان هو نفسه يحدث بذلك حيث يذكر أنه كان متصلاً بالرسول صلى الله عليه وسلم اتصالا مباشراً ، وأنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم رؤية عينيه مشخصةٌ.

ومما يذكر أن محمد المهدي ابن السنوسي وخليفته من بعده قال: دخلت على أبي(محمد بن علي السنوسي) عند وفاته فوجدته متهللاً والأنوار ساطعة وقال لي هذه يد النبي صلى الله عليه وسلم فمد يده الشريفة وسلمت عليه ظاهراً وباطناً، ويقول: وكان وقت تجلي امتزاجي يعني امتزاج روحين بذات واحدة.

واتباع السنوسي يؤمنون بهذا حيث يدعون أنه يمكن الإمتزاج بين الأرواح والأقطاب، كما يدعون أن الأقطاب يتصلون بالحضرة النبوية.

ولكي يصلوا إلى هذا المقام لابد من وسائل . أهم هذه الوسائل الأوراد. من هذه الأوراد (ورد المصافحة) . وهو يعني مبايعة المريد للشيخ فماذا عن هذا الورد ؟

أنهم يأتون بحديث ينسبونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم ا لقيامة دخل الجنة .. وبهذا يتلقى المريد عن شيخه حتى يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأمام تلك الأمور التي ذكرتها فيما يتعلق بغاية الطريق ووسيلته أريد أن استخدم المنهج الذي استخدمه ابن السنوسي فنعرض ما ذكره على منهج الإسلام فإن قبله قبلناه وإلا فلا.

وأول ما أريد أن أذكره في هذا المجال. هو أن ذلك الحديث الذي ذكره ويعتمدون عليه في التلقي غير ثابت عن المصطفى صلى الله عليه وسلم كما حدثني أحد علماء السنة الأفذاذ[7]..

والحديث الثابت هو مصافحة الرسول صلى الله عليه وسلم للرجال في بيعة العقبة وإليه أشار المولى سبحانه في كتابه العزيز :" إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ "...

(7) هو فضيلة الشيخ الدكتور أحمد معبد أستاذ الحديث بجامعة الأزهر وعضة هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف جزاه الله خيراً ومتعه بالصحة والعافية.

وعندما سأله النساء أن يصافحهن قال صلى الله عليه وسلم:" لا أصافح النساء" هذه واحدة.

وأما ما يتعلق بما يطلقونه عليه (التجلي الامتزاجي) فإني أراه لا يتوافق مع ماجاء في الكتاب والسنة الذي سبق أن ذكروا أنهم متمسكون بهما.

وحتى تتأكد من ذلك نتساءل: ماذا يعني التجلي الإمتزاجي ؟ إنه يعني رجوع روح سابقه وتجليلها أو حلولها على روح موجودة وامتزاجهما معاً في بدن واحد ..

هل هذا أمر يقره الإسلام ؟ إلا يذكرنا هذا بالقول المنسوب إلى الحلاج والذي كان سبباً في اختلاف الآراء حوله .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا.

الأمر الذي يؤدي إلى القول بوحدة الوجود؟

حيث الإمتزاج يحدث بين روحين فما المانع أن يكون بين أكثر من روحين؟ أو بين الأرواح جميعاً؟

ثم ألا يؤدي ذلك إلى القول بالحلول ؟ حيث تتجلى الروح السابقة على الروح الموجودة وتحل معها في نفس البدن : وما أدري هل يتحمل البدن وجود روحين ؟ وماذا يحدث لو تنازعا البدن وأرادت كل منهما أن يفعل البدن لها فعلا؟

إن هذا لو قيس بمنطق العقل لكان كلاماً بعيداً كل البعد عنه . فضلاً عن ظاهر المنهج الإسلامي الحنيف.

ثم من قبل ذلك كله. ماذا يعني برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم رؤية شخصية عينية؟

ألا يعني ظاهر ذلك القول بالرجعة التي تؤدي إلى القول بالتناسخ ذلك الرأي الذي تأثر فيه بشيخه الأول في التصوف (التيجاني) الذي سبق أن ذكرت رأيه في هذه المسألة.

ولنا أن نكرر السؤال مرة أخرى . هل هذه أمور أقرها الإسلام في كتابه أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أم أنه رفضها وأقر بخلافها ؟

ولنا أيضا أن نتساءل: إذا كان هذا حال الطريقة التي يقال أنها أقرب الطرق إلى السلفية. فما بالنا بالطرق الأخرى التي قالوا أن فيها خروجا ؟

ثم إن هناك طريقة أخرى يتبعونها في تولية من يخلف الشيخ . وتسمى (المناولة) وهي تعني أن الخليفة أو شيخ الطريقة عنده أشياء أخذها ممن سبقه وقبيل موته يناول هذه الأشياء ويعطيها لمن يرشحه للخلافة من بعده. هكذا فعل محمد بن علي السنوسي مع ولده محمد المهدي حيث أعطاه المسبحة والحزب السيفي ويقال أنه جمعها في يده وأفرعها في يد

ولده وبعد المهدي يقال أنه أوصى بأن تدرج هذه الأشياء مع كفنه، ويقال أنه أعطاها لأحمد الشريف الذي رشحه لتولي الطريق من بعده. وهكذا ...

أقول: أليس في هذا قريب شبه مما يدعيه الشيعة من أن الأئمة يتوارثون علم الجفر الذي يدعون أنه كان عند الإمام علي كرم الله وجهه، وأعطاه لابنه الحسن ثم الحسين ثم من بعده وهكذا ..؟

وليس في معتقد أهل السنة والجماعة شيء من هذا ؟ لكن مع كل ما سبق فقد استقر في الأذهان أن السنوسية دعوة قامت بدور كبير في الإصلاح مع كونها قائمة على التصوف إلا أنه اشتهر عنها لما ظهر عنها (كما سبق أن ذكرت) أنها أقرب الطرق الصوفية إلى الطريقة السلفية وأنها قد تأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

أما الوسيلة الثانية:

هي بناء الزوايا فإنها مرتبطة بالأولى مقترنة بها تقريبا عند كثير من المتصوفة.

أنه اتجه إلى إنشاء الزوايا في كل مكان حل به في الحجاز أولا: زاوية أبي قبيس وعندما رجع إليه مرة أخرى أسس زوايا في الطائف وينبع والمدينة المنورة وجده وغيرها.

أنشأ زوايا كثيرة في أماكن متفرقة في المغرب العربي وليبيا ومصر، وغيرها.

وكان أهم هذه الزوايا في حياته زواية تسمى (زاوية الجغبوب) التي اختارها في النهاية لتكون مقرا له ومركزا لنشر دعوته وأماكن أخرى.

وترجع أهمية الزاوية في النظام السنوسي خاصة إلى أنها بمثابة التطبيق العملي للفكرة الإصلاحية التي نادى بها.

وإذا أردنا أن نتكلم عن الزاوية كوسيلة في دعوة ابن السنوسي الإصلاحية فإننا نتناولها من عدة جوانب.

بداية أقول أن الزاوية في الدعوة السنوسية تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وعسكرية ودعوية وغيرها.

ولهذا كان اهتمام ابن السنوسي بها اهتماما كبيرا ولنرى إلى أي مدى كان هذا الاهتمام فإذا نظرنا إلى :

أ. موقع الزاوية:

وجدناهم يتخيرون لها الموقع الإستراتيجي الهام سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية فأحيانً تكون على ربوة عالية وأحيان في واد.

المهم أنه يختار بعناية كي تؤدي الزاوية وظيفتها التي أنشئت من أجلها.

وكان معظمها في الصحراء باستثناء عدد قليل جداً أقامة في المدن. لكن لماذا في الصحراء؟

لعل هذا نابع من طبيعة ابن السنوسي والظروف التي أحاطت به تلك التي تكيف معها تكيفا كبيراً فرتب طريقته الصوفية ترتيباً ينسجم مع البدوي وتقاليده، وجعلت من البادية وسكانها منطلقاً لها في العالم الإسلامي كله.

كذا عمل على تنظيم أبرز مؤسسات دعوته (الزوايا) بحيث تناسب البادية واحتياجات أهلها. حيث نظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية، والدفاعية والإقتصادية والقضائية والسياسية وذلك لأنه وجد في البادية الأرض الخصبة لزرع أفكاره الإصلاحية حيث البساطة في التفكير، والتحمس والإخلاص لما يؤمنون به، وبالإضافة إلى ذلك فالبادية بعيدة عن متناول يد السلطة ولا تستطيع الوصول إليها.

وتحولت السنوسية إلى دعوة قوامها الزوايا وقد وصل عدد زواياه إلى ما يقرب من مائة وأربعون زاوية موزعة[8]. على أماكن مختلفة في العالم الإسلامي في تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا، ومصر، والحجاز، واليمن، والسودان، والهند، وتركيا.

وكلها متصلة اتصالا وثيقاً كاملاً بمركزها العام في زاوية الجغبوب كما أشرت إلى ذلك سابقاً.

وقد تضاعفت أعداد هذه الزوايا بعد تولي محمد المهدي قيادة ومشيخة الطريقة إثر وفاة أبيه محمد بن علي السنوسي وانتقل المركز الرئيسي من الجغبوب إلى الكفرة.

ب. وظيفة الزاوية:

إن للزاوية وظيفة أساسية معلومة بداهة ألا وهي نشر الدعوة أو الطريقة السنوسية . وبالإضافة إلى هذه الوظيفة نجد أن لها وظائف أخرى من أهمها:

1-أنها مركزا دفاعياً للمنطقة التي تقع فيها، ولذا كان بناء الزوايا عادة محصناً، وكان موقعها حصيناً، كما كان الارتباط بينها، وتوزعها متعلقا بالناحية الدفاعية.

فالسنوسي كان يتوقع هجوم الأعداء عليه . فكان يعد زواياه لصد هذا الهجوم، وحتى لا ينال منها الأعداء عند المقاومة. ولذا نجد أن هذه الزوايا قد أدت غرضها الدفاعي في الحرب السنوسية ضد الفرنسيين . كما قدر لتلك الزوايا أن تقوم بدور بطولي في مقاومة الغزو الإيطالي في ليبيا.

2-أنها مركزا تعليمياً للمكان الذي توجد فيه. حيث فيها المدرسة القرآنية التي يتلقى فيها الأطفال العلم، والمسجد الذي تقام فيه الصلاة. وتلقى فيه الدروس التي يحضرها المصلون.

([8]) قيل أنها كانت اثنين وخمسين تضاعفت بعد وفاة ابن السنوسي.

3-أنها مركزاً اقتصادياً للمنطقة المحيطة بها. فإليها يأتي الأفراد بإنتاجهم حيث يقام السوق وتروج حركة التجارة. بالإضافة إلى أن اختيار الزاوية في مكان تمر بها القوافل التجارية يتيح لها التبادل التجاري مع تجارة القوافل العابرة.

4-وزيادة على ما سبق فتعتبر مركزا للسلطة السنوسية حيث ترد اليها أوامر رئيس النظام، ومنها ترفع التقارير إليه.

وفيما سبق يقول أحد الكتاب الأوروبيين: خدمت الزوايا السنوسية أغراضاً أخرى كثيرة إلى جانب الغرض الديني ، فقد كانت مدارس واستراحات للقوافل، ومراكز تجارية، ومراكز اجتماعية وحصوناً ومحاكم ومصارف ومخازن وبيوتاً للفقراء، وحرماً آمناً ومدافن.. تلك كانت أهم وظائف الزاوية فماذا عن السلطة فيها؟

ج. السلطة في الزاوية:

توزع على النحو التالي:

1-شيخ الزاوية: ويسمى " الخليفة" ويسمى المقدم . ويعتبر نائباً وخليفة عن ابن السنوسي في الزاوية أو ممثلا له فيها يبلغ الأوامر الصادرة منه إلى أفراد الزاوية، ويبعث بتقرير سنوي مفصل إليه.

ويعتبر المسئول الأول أمامه عن كل ما يحدث في الزاوية، ويؤم الناس في صلاة الجمعة ويتولى أمور القبيلة ويفصل في الخصومات . وما إلى ذلك ويجتمع مشايخ الزوايا كل عام في مكان يحددونه مسبقا للتشاور في أمور زواياهم.

2-وكيل الزاوية:

يلي شيخ الزاوية في المنزلة، وإليه النظر في زراعة الأراضي. وجميع الأمور الاقتصادية إلى جانب أي أمر يوكل إليه من شيخ الزاوية.

4-شيخ لإقامة الصلاة: يؤم المصلين في غير صلاة الجمعة. ويصلي على الجنائز . ويعقد عقود الزواج. ويعلم أطفال القبيلة.

5-مجلس الزاوية: ومهمته النظر في مشاكل الأهالي. وفض المنازعات ويضم كل من: وكيل الزاوية، شيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين إلى الزوايا من أتباع ابن السنوسي .

د. مكونات الزاوية:

تتكون الزاوية عادة من: بيت خاص لإسكان شيخها، وبيت للوكيل، ومعلم الأطفال وبيت خاص للضيوف والفقراء الذين ليس لهم مأوى، ومساكن خاصة بالخدم.

وإلى جانب هذه البيوت نجد: المسجد، المدرسة القرآنية، ومخازن لحفظ المؤن، وإسطبل، ومتجر (سوق)، وفرن..

ويكون لها: حرم آمن يلتجأ إليه ، ومتسع من الأراضي الزراعية والآ بار الجوفية، وصهاريج لحفظ المياه ، وأحياناً توجد بعض الحدائق الصغيرة الملحقة بالبيوت.

مصادر التمويل في الزاوية:

تتكون هذه المصادر وتسمى موارد الزاوية أيضاً من : زراعة بعض الأراضي التي تؤل ملكيتها إلى الزاوية عن طريق الوقف ويترك البعض الآخر للرعي وكذا تربية المواشي، والهبات الخيرية التي تقدم من أهالي القبيلة، وكذا الزكاة التي تجبى من أغنياء القبيلة بعد أن حصل ابن السنوسي من السلطات العثمانية على حق جباية الزكاة إلى جانب إعفاء الزوايا من الضرائب.

وكانت كل زاوية تنفق بعض تلك الموارد على احتياجاتها ، والباقي يرسل إلى المركز الرئيسي للتصرف فيه بمعرفة رئيس النظام.

زاوية الجغبوب

نخصها بالذكر كنموذج للزاوية عند ابن السنوسي ولأنها كانت الزاوية الرئيسية أو المقر الرئيسي لابن السنوسي في أواخر حياته.

فأقول: أن ابن السنوسي قد استقر بها مكانا لنشر الدعوة في أماكن أخرى أقامها في مكان بعيد، بعيد عن العمران، بعيد عن محط أنظار الحكام وسلطة الترك في مكان كان يوصف قبل إقامة الزاوية فيه بأن ماءه مر، ليس فيه شجر ولا بساتين أو أي نوع من أنواع الحياة هواءه ثقيل لأنه بين جبال كما كان واحة يأوي إليها اللصوص ولا تستطيع القوافل المرور بها.

لكن مع ذلك يتميز بكونه مكان وسطا حيث كان يشكل شبه جزيرة صحراوية في وسط الصحراء وكان على مقربة من الزوايا في طرابلس بليبيا إلى جانب كونه خصيبا نظرا لأنه واد بين الجبال.

فحفر به العيون وغرس فيه الأشجار وبنى فيه كما بنى في غيره المسجد والمدرسة، وسكنه الخاص ومساكن طلاب العلم والإخوان وأنشأ بجوارها غرفة للضيوف وغرفة للطباخ إلى جانب صهريج المياه.

كما أنشأ إلى جانب المسجد مكتبة جمع فيها الكتب النفيسة حتى يقال إنها كانت تشتمل على ثمانمائة مجلد في مختلف العلوم إلى جانب مخطوطات في علوم مختلفة.

وانتقل إليها ابن السنوسي في آخر محرم وبداية صفر سنة 1272هـ وهكذا دبت في هذا المكان الحياة حتى وصف بعد إقامة الزاوية فيه بأنه أصبح واحة آمنة ومركزا علمياً يأوي إليه المريدون من كل مكان .

وبدأ ينشر دعوته منها إذ كانت القبائل الإفريقية الوثنية تحيط به ففكر في أن يبلغ إليهم الدعوة ويوصل إليهم الإسلام بدلا من النصرانية التي كانت تصل إليهم من المبشرين خاصة وأنها تعتبر أرضا خصبة لغرس الإسلام وأصوله وأخلاقه في نفوس هؤلاء.

ففكر في أن يستفيد من القبائل البدوية التي تتعامل تجاريا مع تلك القبائل الوثنية فبدأ مع هذه القبائل ينشر دعوته في بلادهم وينشيء فيها الزوايا أولا حتى يستفيد منهم فيما بعد.

ووسيلة أخرى نجده قد اشترى قافلة من العبيد ثم قام وأتباعه بتعليمهم الإسلام وطريقته الصوفية ثم أعطاهم حريتهم وارسلهم إلى بلادهم حاملين دعوة الإسلام وطريقة ابن السنوسي إلى تلك البلاد.

بالإضافة إلى استفادة ابن السنوسي من بعض القبائل التي كانت على صلة به وفي نفس الوقت قريب من القبائل الوثنية في الإحتكاك والإتصال بتلك القبائل ونشر الدعوة فيها.

هكذا كانت زاوية الجغبوب ويشبهها إلى حد كبير بقية الزوايا في التكوين والغرض.

وإلى جانب هذين الطريقين التصوف، الزاوية اللذين سلكهما ابن السنوسي في نشر طريقته كانت هناك وسائل أخرى لكنها لم تأخذ الشهرة التي أخذتها هاتين الطريقتين .

من هذه الوسائل: الإمامة، الهجرة، الجهاد

أما عن الإمامة فكان يرى أن الإمامة الخاصة والعامة (الخلافة) يجب أن تكون من قريش.

ومع ذلك وجدناه يسالم ويهادن الأئمة والخلفاء في عصره ولا يرى نقض الإمامة القائمة لأن في ذلك تفريق لكلمة المسلمين ووحدتهم أما إمامة الدعوة السنوسية فإن اتباعه يؤمنون بابن السنوسي إماماً ويدينون له بالطاعة والولاء وهو يصدر الأوامر وعليهم تنفيذها واتباعها وقد ورث هذه الإمامة من بعده ابنه المهدي.

وأما عن الهجرة فقد كان ابن السنوسي يرى ضرورة الهجرة ويقصد بها الهجرة في سبيل تبليغ الدعوة وإرشاد الناس.

وكان كثير من أتباعه يساعدونه في تبليغ دعوته ونشرها بين الناس وإرشادهم إليها خاصة في مناطق الزوايا التي أنشئت حيث يجلس الدعاة ليقوموا بمهتهم في الدعوة وكان يطلق على من يهاجر إلى الزوايا سواء لتبليغ الدعوة أو غيرها لقب (مهاجر) ، وفي نفس الوقت نجد أيضاً أن اتباعه كانوا حريصين كما يظهر من أقوالهم على التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وبالغوا في ذلك حتى استخدموا التعبيرات التي كانت تستعمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ويعملون على تنفيذ مخططات مشابهة لتلك التي نفذها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعلى سبيل المثال: نجد أن ابن السنوسي قد أطلق على اتباعه الذين صحبوه في زاوية الجغبوب (الصحابة البدريين) .

كما نجد أن أتباع المهدي (ولد السنوسي) قد شبهوا ارتحال المهدي ومن معه من جغبوب إلى الكفرة بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

وأما عن الجهاد فهو من الأمور التي حث عليها الإسلام كثيرا وعندهم الجهاد نوعان:

جهاد في الدعوة إلى الله ونشر الإسلام وتعاليمه وأخلاقه وجهاد ضد الكفار والمغتصبين وإخراج المستعمرين.

وقد اهتم ابن السنوسي بالنوع الأول وأجل النوع الثاني لحين الإستعداد له.

وإن كان أخذه بالنوع الأول لم يعفه عن النوع الثاني بل نراه قد جاهد ضد المستعمرين الإيطاليين في ليبيا والفرنسيين في المغرب.

تلك كانت أهم الوسائل التي اتخذها ابن السنوسي في دعوته الإصلاحية .

أهم ما يميز الطريقة السنوسية عن الطرق الصوفية الأخرى :

إن من أهم ما يميز الطريقة السنوسية عن غيرها:

1-أنها دعوة دينية سياسية عامة:

حيث وجدنا لها زوايا تقوم بمهمتها نحو الإصلاح الديني والسياسي في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي.

2-أنها إلى جانب اهتمامها بنشر أفكارها التصوفية والإصلاحية بين الناس وجدنا اهتماما لا يقل عنه بتطبيق هذه الأفكار تطبيقا عمليا عن طريق الزوايا المنتشرة في البلاد المختلفة.

3-أنها جنحت إلى فتح باب الإجتهاد في الأمور الفقهية وذم التقليد فيها.

4-أنها خالفت في تعاليمها التي ذكرت في كتبها وأقوال شيوخها ومتبعيها كثير من الحركات والطرق الصوفية التي كانت موجودة آنذاك، كما يتضح ذلك من عرضنا لأهم تعاليمها.

اهم تعاليم الدعوة السنوسية:

بداية نجد ابن السنوسي قد ذكر أن طريقته تقوم على البساطة في التعبير و العظة وأنها تستند في وصاياها إلى القرآن والسنة .

كما ذكر أنها تدعو إلى التعاون والأخوة والتماسك وتوجه اجتماعاتها إلى القيام بعمل تعاوني نحو محتاجيه من الفقراء والغرباء الضيوف فيقومون بإطعامهم وإكرامهم محاولين أن يكونوا قدوة لهم في المحبة والصفاء والود والإخاء.

ونجد منهم التأكيد على:

1. الرجوع إلى الكتاب والسنة ووجوب اتباعهما وتقديمهما على رأي كل مجتهد.
2. أن السلوك الخلقي القويم هو الذي يوزن بميزان الشريعة ويتأيد بالكتاب والسنة.
3. لا صحة للمقولة القائلة بـ " ا لاجتهاد قد انقطع بالإجماع" بل ينبغي الإجتهاد كما اجتهد الأئمة من قبل، لأن ما أثر عنهم من الفتوى وغيرها ليس إلا فهما الكتاب والسنة ومن ثم فلا معنى لإنحصار التقليد في مذاهب هؤلاء الأئمة خاصة الأربعة بل ينبغي على المسلمين الذين تتوفر فيهم شروط الإجتهاد أن يجتهدوا كما اجتهد أولئك الأئمة.

خاصة وأنه لم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده دون غيره أو يأخذ بأقواله ويدع أقوال غيره كلها.

نعود إلى أهم تعاليم الدعوة السنوسية والطابع العام لها:

نجد أن أول شيء اشتهرت به أنها حركة عامة وفي نفس الوقت دينية. أما كونها دينية لإظهارهم أنهم يدعون إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة. وإما كونها عامة لكونها لم تختص بمكان دون مكان وقوم دون قوم.

وأيضا هذه الدعوة تعتني بتطبيق الأفكار أكثر من الفكرة نفسها حيث جعلت الزوايا بمثابة أرضية لتطبيق أهداف ابن السنوسي وكيفية تطبيق هذه الدعوات كانت بتعليم الناس وحثهم على قراءة كتب السنة والسيرة ويدعو إلى تحصين الزوايا عسكريا. فهو طبق أفكاره عمليا من خلال الزوايا .

ومن خلال هذه الدعوة إلى التطبيق العملي ظهر لنا أن هذه الدعوة ليست دعوة للتواكل والاستسلام كحال بعضهم الدعوات الصوفية بل كانت تدعو للعمل والمجاهرة ونحو ذلك.

وكانت الدعوة السنوسية تنزه نفسها بالابتعاد عن البدع والخرافات وحلق الرقص والتعدي السافر على الكتاب والسنة. وبهذه الصورة العامة للدعوة السنوسية ننتقل إلى بعض تعاليم ابن السنوسي تلك التي تظهر من أقواله (ولنا الظاهر والله يتولى السرائر):

1. نادى بالرجوع إلى الكتاب والسنة والالتزام بهما وكل رأي يخالف الكتاب والسنة لا يتقيد به ولا يؤخذ به هذا ما أعلنه ابن السنوسي بل أن هذا الرجوع إلى الكتاب والسنة وعدم الاعتداد بأي رأي يخالفهما دعاه إلى فتح باب الاجتهاد من جديد وهو رد فعل لما كان سائداً من التبعية والجمود والتقليد الأعمى للآراء القديمة دون نظر.
2. قال أن التقليد بدعة قبيحة مستحدثة في الأمة لم يقل بها أحد من أئمة الإسلام ولم يدعوا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ولا التابعين ولا تابعيهم . ويجب أن نلحظ أن هذا الكلام يجب يعلم أنه ليس على إطلاقه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالاتباع.
3. أن الذي يسير في سلوكه وأخلاقه على الكتاب والسنة هو الذي على الصراط المستقيم والطريق القويم.

4. بالإضافة إلى تعاليم عامة يدعوا إليها كالتعاون والأخوة والتواضع والدعوة إلى البساطة في التعبير أثناء إلقاء المواعظ كل هذا سجل لابن السنوسي من خلال كتاباته وأقواله وأقوال أتباعه الأمر الذي جعل الكثير من الكتاب (متقدمين ومتأخرين) يثنون على دعوته ويقولون أن دعوته أقرب دعوة إلى الكتاب والسنة.

اهم أهداف الدعوة السنوسية:

1. من أهم أهدافه التي حرص عليها تغيير أحوال المسلمين وإيجاد مجتمع مسلم يستمسك بالكتاب والسنة كي يواجه الظروف التي كانت تحيط به وينهض من تدهوره وضعفه.

2. إصلاح الفرد فإذا صلح الفرد صلح المجتمع بأسره ولذلك اتخذ من دعوته ومن زواياه وسائل لتحقيق هذه الأهداف.

3. قد لاحظ ابن السنوسي أن هناك مجتمعات جاهلة لا تعرف عن الإسلام شيئا بل هناك مجتمعات وثنية فكان هدفه نشر الإسلام بين تلك المجتمعات بشتى الوسائل وخاصة المجتمعات التي كان يحرص المنصرون على تنصيرها.

وختاما نقول:

أن من أهم الإيجابيات للدعوة السنوسية :

1. دعوتها للرجوع إلى الكتاب والسنة.
2. سعيها لنشر العلم والحرص على تثقيف الناس.
3. محاولاتها صد الغزو الصليبي بناحيته الفكرية والمادية.
4. اهتمامها بتوحيد كلمة المسلمين ومحاولة تجميعهم والأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم.
5. نبذ التقليد الأعمى والدعوة إلى الاجتهاد المنضبط .
6. محاولة تحقيق مجتمع إسلامي متكامل يتمتع بالاكتفاء الذاتي ويستطيع الدفاع عن دينه ونفسه وماله.

وإن كان لها بعض السلبيات التي ذكرنا أهمها في ثنايا البحث لكنها في مجموعها لا تقلل من أهمية هذه الدعوة في تلك الفترة من فترات التاريخ الإسلامي لتصحيح مسار المسلمين وجمع شملهم وتقويم ما أعوج من أفكارهم.

هذا والله أعلى وأعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى اللهم وسلم على أشرف خلقك وخاتم رسلك نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.